الساحل الشرقي لإفريقيا (ساحل الزنج)

خلال المرحلة الإسلامية إلى حين وصول البرتغاليين❖

أ.د. أحمد الشكري

معهد الدراسات الإفريقية / جامعة محمد الخامس – الرباط / المملكة المغربية

البحر يعطي جزافاً، ويأخذ جزافاً.

ابن فضل الله العمري (ت. ١٣٤٩م)

«نحن أبناء البحر الأبيض المتوسط المنتشرون على ضفافه، نعشق بحيرتنا، ولا نريد عنها بديلاً»، وتمكيناً لهذا الحسّ الطافح؛ استشعر الرومان حاجةً ملحة لاستعمار شواطئه، ولما تحققت رغبتهم، وأحاطوا به من جلّ الجوانب، سمّوه في كتاباتهم «بحرنا»= Mare nostrum. وعملاً بنفس الروح؛ نجد أبناء مصر المطلين على المحيط الهندي، عبر

❖ أحب أن أهدي هذا المقال إلى أستاذي الفاضل، الصديق والزميل العزيز: سيدي أحمد الأزمي، اعترافاً بأفضاله على مشواري في حقل الدراسات الإفريقية بالمغرب؛ وأنتهز هذه الفرصة السانحة لتقديم الشكر الجزيل للزملاء الأعزاء، الذين تفضلوا بمراجعة هاته الدراسة، وأسهموا بتصويباتهم وملاحظاتهم في تجويدها.

نافذة البحر الأحمر، لا يرغبون في التخلي عن سواحلهم المتوسطية مهما قدّم لهم البحر الأول من إغراءات جذابة. إننا- فعلاً أمام غطرسة وسطوة فريدة للكيانات المائية في حياة الأمم والشعوب[1].

وتحت تأثير هذه السطوة والغطرسة؛ يمسي هذا الانحياز وتلك الممالأة شيئاً ملحوظاً ولافتاً في المنجَز المعرفي للدارسين؛ إذ نلاحظ أنه على الرغم من الأهمية البالغة للمحيط الهندي في حياة أمم وشعوب العالم القديم، وساحل «الزّنج»[2] جزءٌ منه، فإن العناية الأكاديمية لم توله حقّه مقارنةً بحياة ضفاف المحيط الأطلنطي الحديثة العهد بعالم التدوين (نهاية القرن ١٥م)، خاصةً بالنسبة للباحثين المنتمين لدول البحر الأبيض المتوسط، أو لتلك الدول القريبة من شواطئه والمتفاعلة معه. وتبعاً لهذا الواقع؛ لقيت الواجهة الشرقية الإفريقية (برّ الزّنج) المطلة على المحيط الهندي تجاهلاً فظيعاً ومريباً من جانبهم، إلى درجة أن الدراسات الرصينة المتوفرة تبدو قليلة وقليلة جداً، سيما تلك المتعلقة بالفترة الإسلامية المتراوحة ما بين القرن ٨م ومطلع القرن ١٦م.

وقد يبدو هذا العامل لوحده كافياً لتحفيزنا على الاهتمام بالموضوع، بيد أن هناك عوامل أكثر أهمية وإغراءً للمختصين في حقل الدراسات الإفريقية[3]:

(١) لعل ما يعكس هذه الحالة بجلاء: أن جلّ الباحثين الأفارقة المساهمين في كتابة (تاريخ إفريقيا العام) في ٨ أجزاء، الصادر عن منظمة اليونيسكو بلغات متعددة، خلال العقدين الأخيرين من القرن الماضي، ينتمون لبلدان الشمال الإفريقي وغرب إفريقيا، بينما نجد قلة قليلة من أسماء الدارسين المنتمين لإفريقيا الشرقية ضمن لائحة المساهمين!

Neville Chittick, «L'Afrique de l'Est et de l'Orient : les ports et le commerce avant l'arrivйe des Portugais», In Relations Historiques a travers l'ocйan Indien, Histoire gйnйrale de l'Afrique : Etudes et documents 3, Paris, UNESCO 1980. p.21.

(٢) تداولت الثقافة الإغريقية ومن بعدها الرومانية اصطلاح «الوجوه المحروقة» = السّود = Ethiopes للإشارة إلى القبائل والشعوب المستعمرة للفضاء الجغرافي الواقع جنوب الصحراء الكبرى بإفريقيا؛ ولتعيين نفس القبائل والشعوب شاعت في المصادر العربية خلال العصر الوسيط اصطلاحات تكاد تكون مترادفة، اللهم إلا التمييز على مستوى الانتماء الجغرافي: (السودان، والزنج، والحبش). ولئن كنا نتفهم الظروف التي أفرزت لنا مثل هذه التسميات خلال العصر القديم والوسيط والحديث؛ فإننا لا نرى أية ضرورة تدعونا للاستمرار في تداول هذه المصطلحات القائمة على التمييز بحسب لون البشرة، والتي طالت للأسف حقل الأدب، فبات لدينا ما يُعرف بالأدب الزنجي!! وبغرض مقاومة أسطورة لعنة نوح، رغبةٌ منا في خلق معجم أو سردية تاريخية من صنع إفريقي خالص، نقترح بهذا الصدد استعمال اصطلاح «بلاد التكرور» أو «أهل التكرور» كمقابل لمفهوم بلاد أو أهل «السودان»، آملين التخلي عن الاصطلاح القديم، واعتماد المفهوم المقترح، أو أي مفهوم آخر يقوم على أساس التمييز الجغرافي أو المناخي.

(٣) هذا المقال هو جزء من دراسة موسعة سيتم نشرها في

أولها: المساهمة الفعالة والنشيطة لأهالي وشعوب الساحل الشرقي في تنمية المبادلات التجارية السلمية بالمحيط الهندي أيام ازدهارها، أي قبل وصول البرتغاليين إليه نهاية القرن ١٥م، وما تلا ذلك من صراعات دموية خلال القرن الموالي.

والأمر الثاني: الذي يجذب عنايتنا ويدعونا للاهتمام بالواجهة الشرقية الإفريقية، المطلة على المحيط الهندي، قبل اكتشاف طريق الهند من جانب البرتغاليين العام ١٤٩٨م، يتجلى في ضرورة مقاربة قضية معرفية غاية في الالتباس، وهي: كيف كان العقل أو الوعي الجغرافي العربي بشقّيه الفلكي والوصفي يتمثل أبعاد القارة الإفريقية جنوب خط الاستواء[١].

وعليه؛ ستتناول هذه الدراسة عدداً من المحاور، أولها: المحيط الهندي في جغرافية العالم القديم، والثاني: الواجهة الغربية للبحر الهندي في الجغرافية العربية، والثالث: خريطة الساحل الإفريقي (ساحل الزنج).

أولاً: المحيط الهندي في جغرافية العالم القديم:

عرفت صفحة مياه المحيط الهندي دينامية ملاحية نشيطة منذ ما قبل بداية التقويم التاريخي المسيحي، واستمر هذا النشاط في تطور متلاحق خلال العصرين الوسيط والحديث. ونتيجةً لذلك؛ تأسست شبكات ملاحية تجارية دولية، استفادت منها جلّ الشعوب والأمم المطلة على سواحله، فكان أن ترسخت لديها القيم والسلوكيات الموجِبة للانفتاح على الآخر، مما حرّضها على العناية البالغة بالواجهة البحرية، فأضحى تاريخ كل أمة منها منجذباً نحو البحر بقدرٍ كبير أو قليل، بحسب مدى الاستفادة من خيراته، دونما أي إغفال للمسالك البرية التي دشنتها المجتمعات البشرية هنالك منذ أقدم العصور، ومنها طريق الحرير المشهورة.

وفي ضوء هذه المعطيات؛ يصعب تناول تاريخ شعوب الساحل الشرقي لإفريقيا إلى جانب العرب والفرس والهنود والصينيين، فضلاً عن العالَم الإندونيسي والماليزي، بعيداً عن التفاعلات والديناميات المتعددة الأبعاد التي شهدها المحيط الهندي في مختلف العصور. ويظهر أن سعة فضاء هذا الكيان المائي (٥٠ مليون كلم^2)، وتعدّد الحضارات الأصيلة والعريقة التي تعاقبت على ضفافه (إمبراطوريات الرياح الموسمية)[٢]، تُعجز أي

النسخة الالكترونية للمجلة.

(١) نعتقد أن الموضوع بحاجة لدراسة مفردة ودقيقة، بعيداً عن النزعات التي تمجّد عطاءات الجغرافية العربية، وتذهب إلى حدّ نفي تأثرها بالتقسيم البطلمي للعالم المعمور، وبعيداً أيضاً عن الميولات المغرضة (المستخفية في عباءة القراءة النقدية)، الرامية إلى النّيل منها، حتى إن بعض الباحثين يعتبرون الأدب الجغرافي العربي مجرد ترجمة حرفية للتراث الجغرافي اليوناني، وأنه كان عقيماً في مجمله، ولم يقدّم أية إضافات تستحق التنويه أو الإشادة. وهنالك فريق ثالث جاء بعدهما، وهو الأكثر إيلاماً، يستحضر صورة إفريقيا بالأبعاد الجغرافية التي نعرفها اليوم، ثم يأخذ في استعراض تاريخ الساحل الشرقي لإفريقيا خلال العصر الوسيط بناءً على شهادات ونصوص الجغرافيين العرب، دونما أي وعي بالمطبات والمنزلقات التي يسقطون فيها حين اعتماد هذا التصور المجانب لصواب فهم واعتقاد أصحاب مصادرنا عصرئذ. انظر: بناصر البعزاتي، «في وثاقة الكسمولوجيا الرشدية»، ضمن العلم والفكر العلمي بالغرب الإسلامي خلال العصر الوسيط، منشورات كلية الآداب بالرباط، سلسلة ندوات ومناظرات رقم ٩٤، ٢٠٠١. ص٨٨-٨٩، ١٠٥-١١٤.

(٢) ابتدع ريتشارد هول Richard Hall تسمية لافتة لهذه الوحدات السياسية العريقة بالمحيط الهندي، وهي جديرة بالاستعمال والتداول، حيث أطلق عليها اسم «إمبراطوريات الرياح الموسمية». انظر: ريتشارد هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، أبو ظبي: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية ١٩٩٩، ترجمة: كامل يوسف حسين.

باحـــث عن النهوض بلملمـــة أطرافه مثلما فعل العلامة فيرناند بروديل Fernand Braudel مع البحر الأبيض المتوسط[١].

ثانياً: الواجهة الغربية للبحر الهندي في الجغرافية العربية:

غداة محاولة كريســـتوف كولومبس اختراق أوقيانوس (المحيط الأطلنطي) تحت رعاية التاج الإســـباني، ووصوله لســـواحل القارة الأمريكية (الهنـــد الغربية، الدنيا الجديـــدة: ١٤٩٢م)، ثم اجتهاد فاسكو دي كاما في الالتفاف على رأس الرجاء الصالح بهدف استكشـــاف طريق الهند العـــام ١٤٩٨م لصالح العـــرش البرتغالي، كانت المعرفة العربية بجغرافية العالم القديم مهيمنة، حتى إنها شكلت الأثر الوحيد المتوفر وقتئذ عن بعض أقاليم الأرض المعمورة[٢].

كان الأدب الجغرافي العربي، قد حقّق تراكماً معرفياً هائلاً عن المحيط الهندي، بما في ذلك ضفته الغربية، خلال الفترة من القرن (9-15م)

وفي سعي رصين للتّشديد على هذا المعطى؛ يقول المستعرب الروسي أ. يو. كراتشكوفسكي: «لا يقتصر محيط الأدب الجغرافي العربي على البلاد العربيـــة وحدها، بل يمدنا بمعلومات من الدرجـــة الأولى عـــن جميع البـــلاد التي بلغها العرب، أو التي تجمعـــت لديهم معلومات عنها، وذلك بنفس الصـــورة المتنوعة التي وصفوا بها بلاد الإســـلام؛ **وقد يحدث أحياناً أن تمثل المادة الجغرافية العربية إما المصدر الوحيد أو الأهم لتاريخ حقبة معيّنة لقُطر ما**»[٣].

وغني عن البيـــان: أن فئة التجار في البحر الهندي، أو الذين انشـــغلوا بأمـــر التجارة فيما بين ضفتَي الصحراء الكبرى بالقارة الإفريقية،

(١) Fernand Braudel, La Mйditerranйe et le monde mйditerranйen a l'йpoque de Philippe II, Paris, Armand Colin, 1949 ; deuxiиme йdition rйvisйe, 1966.

(٢) يبدو أن المصنفين العرب، في ميدان الجغرافيا الوصفية، لم يعملوا على ابتداع أسماء خاصة بالكيانات المائية المعروفة لديهم، وإنما اكتفوا بتمييزها بحسب أسماء الأمم والشعوب المحاذية لها أو المطلة عليها، كما كانوا في بعض الأحيان يستعينون بالمعالم الطبيعية المميزة للسواحل، مثلما الحال بالنسبة للمضايق. وتبعاً لذلك نجد البحر الأبيض المتوسط يُسمّى بـ«بحر الروم» أو «بحر الشام»، وحينما نبلغ منتهاه غرباً عند مضيق جبل طارق، يسمّى «بحر الزقاق» (مجمع البحرين)؛ فيما أُطلق على المحيط الهندي تسميات مختلفة بحسب مواقعنا: بحر الحبشة = الإيريتري = بحر بربرة / بحر الزنج / بحر اليمن / بحر السند / بحر الهند / بحر الصين. وبحكم الانتماء، أطلق الإصطخري الفارسي (ت. ٩٥٧م) على المحيط الهندي اسم: «بحر فارس»، وحذا حذوه ابن حوقل النصيبي (ت. ٩٨٨م). وأما المحيط الأطلنطي، فقد اعتمدوا في تسميته على الإرث الجغرافي اليوناني: أوقيانوس، وهناك تسمية أخرى لا نعرف السبب في اعتمادها: البحر الأخضر أو الأسود؛ وبالنظر لصعوبة الملاحة به وتهيّب الرّبابنة من اقتحامه ومكافحة لججه، سمّوه أيضاً «البحر المحيط باليابسة» أو «بحر الظلمات»؛ ويعلل الشريف الإدريسي (ت. ١١٦٥م) التسمية الأخيرة بقوله: «ولا يعلم أحد ما خلف هذا البحر المظلم، ولا وقف بشر منه على خبر صحيح، لصعوبة عبوره، وظلام أنواره، وتعاظم موجه، وكثرة أهواله، وتسلط دوابه، وهيجان رياحه؛ وبه جزائر كثيرة منها معمورة ومغمورة»، انظر: الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، القاهرة: المكتبة الثقافية الدينية ٢٠٠٢. المجلد ٢: ٥٢٥. أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخري المعروف بالكرخي، مسالك الممالك (وهو معوّل على كتاب صور الأقاليم للشيخ أبي زيد أحمد بن سهل البلخي)، ليدن: مطبعة بريل ١٩٢٧. ص٦، ٨، ١١، وخاصةً ص ٢٩ وما بعدها.

(٣) يوليانوفتش أغناطيوس كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٧، ط. ٢ مصححة ومنقحة، نقله عن الروسية صلاح الدين عثمان هاشم، ص ١٩.

وغيرهم من الفقهاء والدعاة ممن ارتادوا الأقاليم المنوّه بها، قدّموا خدمات ومساعدات قيّمة للجغرافية العربية خلال العصر الوسيط؛ من ثمة؛ استطاعت التعريف بأحوال منطقة الصحراء والساحل[١] (بلاد التكرور)، وامتدت جرأتها المعرفية إلى خط الاستواء بحسب التقسيم البطلمي[٢]، بيد أن معرفتها به وبما وراءه ظلت نظرية، ليس إلا[٣]. ويظهر أن دواخل القارة الإفريقية (جنوب خط الاستواء) قد استعصت على المصنفات الجغرافية العربية، مثلما استعصت- أيضاً- على الكتابات الأوروبية الناجمة عن مرحلة الكشوفات الجغرافية (١٥-١٨م)، التي لم تتمكن- بدورها- من التّعرف على مصادر الأنهار الكبرى (النيل، والكونغو، والنيجر) إلا قُبيل منتصف القرن ١٩م.

وإذا ما انتقلنا من جوف اليابسة إلى الشواطئ الشرقية والغربية للقارة الإفريقية (المحيط الهندي والمحيط الأطلنطي)[٤]، نلاحظ ونسجل تفاوتاً هائلاً في المعلومات التي تعرضها المصادر العربية طيلة العصر الوسيط (٨-١٦م)، ذلك أنه على الرغم من بعض المحاولات الاستكشافية المبكّرة؛ فقد ظل بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي) اسماً على مسمّى

(١) يمتد مجال منطقة الساحل من البحر الأحمر (سودان النيل) شرقاً إلى المحيط الأطلنطي في جزئه السنغامبي غرباً (حوالي ٤٠٠٠ كلم)، وينحصر عمودياً فيما بين الضفة الجنوبية للصحراء ومنطقة الحشائش (السفانا) المطلة على الغابة الاستوائية. وللاستزادة حول الأبعاد الجغرافية للمنطقة، والمعطيات المناخية الخاصة بها مع خرائط توضيحية دقيقة. ينظر:
Rйmi Dewiиre, Du Lac Tchad a la Mecque : Le sultanat du Borno et son monde (XVIe- XVIIe -siиcle), Йdition de la Sorbonne, 2017. pp. 132 .140

(٢) حاول عبد الرحمن بن خلدون (ت. ١٤٠٦م) استعراض التصور البطلمي لصورة أقاليم الأرض، مستعيناً بما خلّفه الشريف الإدريسي (ت. ١١٦٥م) وابن سعيد المغربي (ت. حوالي ١٢٦٨م)، ومما جاء عنده: «اعلم أن الحكماء قسموا هذا المعمور، كما تقدّم ذكره، بسبعة أقسام من الجنوب إلى الشمال، يسمون كل قسم منها إقليماً. فانقسم المعمور من الأرض كله بهذه السبعة الأقاليم، كل واحد منها آخذ من الغرب إلى الشرق على طوله. فالأول منها مارّ من الغرب إلى الشرق على خط الاستواء بحدّه من جهة الجنوب، وليس وراءه هنالك إلا القفار والرمال، وبعض عمارة إن صحّت فهي كَلَا عمارة. ويليه من جهة شماليه الإقليم الثاني والثالث كذلك، ثم الرابع والخامس والسادس والسابع»، انظر: عبد الرحمن بن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، تونس: دار القيروان للنشر ٢٠٠٦. قرأه وعارضه بأصول المؤلف، وأعد معاجمه وفهارسه: إبراهيم شبّوح بمساعدة إحسان عباس إلى حين وفاته سنة ٢٠٠٣، الكتاب الأول (المقدمة)، الجزء الأول، ص ٨٩-٩٢.

(٣) جُلّ المعلومات التي كانت تستبطنها الجغرافية العربية عن المجال الممتد فيما بين منطقة الساحل وخط الاستواء الوهمي، كانت ترسم لنا صورة مشوشة وغير واضحة، وغالباً ما اتسمت بالطابع العجائبي أو الغرائبي. ولعل أبرز مؤشر يدلنا على ذلك يتمثل في الاعتقاد السائد حينئذ، الذي يفيد بأن جبل القمر الواقع خلف خط الاستواء، هو مصدر ومنبع جميع الأنهار والبحيرات الإفريقية (النيل، بحيرة التشاد، نهر النيجر، نهر السنغال، بل حتى نهر السّند في آسيا حسب الجاحظ)؛ ولذلك كان لها اسم واحد، هو: النيل. ويستدعي المقام هنا استحضار اجتهاد الشريف الإدريسي حين إضافته للإقليم الثامن الواقع خلف خط الاستواء، بيد أن عمله هذا لم يغير شيئاً ذا بال في التصور العام السائد طيلة العصر الوسيط. ونعتقد أنه لو كانت للإدريسي (ت. ١١٦٥م) رحلات وأسفار في البحر الهندي ووصل للساحل الشرقي لإفريقيا مثلما فعل المسعودي خلال القرن ١٠م، لكانت جرأته على تجاوز التقسيم البطلمي لأقاليم الأرض أكبر. انظر: الشريف الإدريسي، أنس المُهج وروض الفُرج (قسم شمال إفريقيا وبلاد السودان)، الرباط: منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ٢٠٠٧، تحقيق: الوافي نوحي. ص ١٠٨- ١١٠، ١٣٠-١٣١.
Andrй Miquel, Gйographie arabe et reprйsentation du monde : la terre et l'йtranger, T. 2 Vol. 1, Ch. .140-4. Paris, 1975. pp. 135

(٤) نستثني الشواطئ المطلة على البحر الأحمر (بحر القلزم، بحر السويس) باعتباره شعبة من المحيط الهندي، وأيضاً شواطئ البحر الأبيض المتوسط بحكم توفر كم هائل من المصادر والدراسات عنها؛ ولمن رام الإحاطة بصفحة مياه البحر المتوسط؛ نحيله على العمل الضخم الذي أنجزه العلامة فرناند بروديل الموثّق في الهامش رقم ١، ص٢٧.

في الثقافة العربية إلى وقت متأخر جدّاً[1]؛ وجلّ من جاء بعد المسعودي (ت. ٩٥٧م)، ظل يردّد عباراته فيما يخص وصفه للمحيط الأطلنطي: «[فهو البحر الذي] لا يُحاط بمقداره، ولا تُدرك غايته، ولا يُعلم منتهاه». وكانت «جزر الخالدات» به، تمثل نهاية العالم المعمور إلى حدود منتصف القرن ١٥م[2]. ويفضي هذا المعطى إلى حقيقة ساطعة مفادها: أن السواحل المغربية الأطلنطية كانت تمثل القطعة الإفريقية الوحيدة المعروفة من الساحل الأطلنطي وقتئذ، أي قبل نهاية الثلث الأول من القرن ١٥م.

في المقابل؛ كان الأدب الجغرافي العربي قد حقّق تراكماً معرفياً هائلاً عن المحيط الهندي، بما في ذلك ضفته الغربية، خلال الفترة نفسها من القرن (٩-١٥م)، جراء الحيوية الفائقة للنشاط التجاري على صفحة مياهه. ولم يكن

(١) لقد كان حسن أميلي محقّاً حينما استحضر تصور أبي القاسم الزياني (ت. ١٨٣٣م) لصفة الأرض، للتدليل على ما نرومه. ذلك أن صاحبنا عاش إلى غاية نهاية الثلث الأول من القرن ١٩م، بيد أن وصفه لأقاليم الأرض جاء ليجتر التصورات القديمة الواردة عند ابن حوقل والمسعودي ثم الإدريسي، وبذلك أسقط من خريطة الكرة الأرضية القارة الأمريكية، التي تم اكتشافها من جانب الإسبان قبل أكثر من ثلاثة قرون من تاريخ وفاته. وفي ذات السياق، نشير إلى أن الزياني شأن ابن خلدون (ت. ١٤٠٦م) قبل استقراره بمصر، شكّك في روايات الرحالة ابن بطوطة عن الهند، وتبعاً لذلك لم يعتمد شهاداته. ولعله من اللافت للانتباه أيضاً أن لا نجد عند الجغرافي الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف بليون الإفريقي (ت. ١٥٥٢م) صاحب كتاب (وصف إفريقيا) ولو إشارة عرضية تفيد معرفته بالعالم الجديد (أمريكا)، مع أنه مرّ على حدث استكشافه أكثر من ثلاثة عقود من الزمن (١٤٩٢م)، وكان صاحبنا قد انتهى أو رفع يده عن التأليف العام ١٥٢٦م. وللمقارنة؛ تجب الإشارة إلى أنه على الرغم من أن التأليف خاص بإفريقيا، فقد وقعت الإشارة مرات عديدة لبعض أقاليم آسيا وعدد من دول أوروبا مثل إسبانيا والبرتغال وإنجلترا وروما إلخ، ناهيك عن إشاراته لمكة المشرفة والمدينة المنورة بالحجاز. وبخلاف ما تقدم؛ يبدو أن الاحتكاك العنيف والمتوتر للأتراك العثمانيين مع الأوروبيين جعلهم على دراية بالمنجزات الملاحية الإيبيرية منذ مطلع القرن ١٦م. وذلك ما تدل عليه الخريطة الدقيقة للعالَم التي أنجزها الجغرافي العثماني بيري ريس. انظر: ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأمصار، الرباط: أكاديمية المملكة المغربية ١٩٩٧. قدّم له وحققه ووضع خرائطه وفهارسه عبد الهادي التازي، المجلد ٤: قسم الملاحق، ص ٢٨٥-٢٨٨. الحسن بن محمد الوزان، وصف إفريقيا، بيروت: دار الغرب الإسلامي، طبعة ثانية ١٩٨٣، ترجمة عن الفرنسية: محمد حجي ومحمد الأخضر (يراجع فهرس الأعلام الجغرافية أو الأماكن). أبو القاسم الزياني، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور براً وبحراً، الرباط: دار نشر المعرفة، طبعة ١٩٩١. حققه وعلق عليه عبد الكريم الفيلالي. ص ٢٨٨-٢٩٥، ٥٨١. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٦٣٨، ٦٤٩، ٦٥٤، ٦٥٦، ٦٧١. حسن أميلي، المغاربة والمجال البحري في القرنين ١٧ و١٨م، الرباط: دار أبي رقراق للطباعة والنشر ٢٠١١، ص ٦٤.

(٢) أبو الحسن علي بن الحسين بن علي المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، بيروت: المطبعة العصرية ٢٠٠٥. اعتنى به وراجعه كمال حسن مرعي، ج ١: ٩٣، ٩٨. وذات الفكرة نجدها عند الجغرافي الشريف الإدريسي منتصف القرن ١٢م، إذ شدّد هو الآخر على صعوبة الملاحة في مياهه (يراجع هامش رقم ٦). على أن ذلك لم يمنع بعض المغامرين العرب بالأندلس ممن خاطروا بأنفسهم في محاولة استكشافه وخوض غماره منذ القرن ٩م. وفي هذا الباب، تندرج قصة الإخوة المغرورين، التي ألمح إليها المسعودي، وأفاض في بسط أطوارها الإدريسي (نزهة المشتاق، المجلد ٢: ٥٤٨). ونجد لدى كراتشكوفسكي نوعاً من التّحفظ تجاه هذه المغامرات الأندلسية. وههنا، يحسن بنا الإلماع إلى مغامرتين في مياه بحر الظلمات مطلع القرن ١٤م، وذلك أيام دولة مالي المسلمة؛ إذ تذكر المصادر إنه بعد فشل المحاولة الأولى؛ تزعّم أحد سلاطين مالي المغامرة الثانية لبلده، غير أنها لقيت نفس المصير. وكان هذا السلطان المغامر- على حد قول العمري (ت. ١٣٤٩م)- قد تولى الحكم قبل السلطان الحاج منسى موسى (١٣١٢-١٣٣٧م). ولأهل الصين مغامرات مماثلة في المحيط الأطلنطي مطلع القرن ١٥م، تحدث عنها فؤاد سزكين. انظر: ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار في ممالك الأمصار، بيروت: دار الكتب العلمية ٢٠١٠. أشرف على تحقيق الموسوعة: كامل سليمان الجبوري. ج ٢: ٥٧-٥٨، ج ٤: ٥٦. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ١٥٢-١٥٤، ٤١٢-٤١٣. فؤاد سزكين، اكتشاف المسلمين للقارة الأمريكية قبل كريستوفر كولومبوس، مستل من «تاريخ التراث العربي بالألمانية: ٢٠٠٦»، معهد تاريخ العلوم العربية والإسلامية، جامعة فرانكفورت ألمانيا الاتحادية ٢٠١٤. الترجمة العربية عن الأصل الألماني: فريد بن فيغول. ص ٧-١١، ٢٣-٢٤، ٥٠-٦٠.

بالوسع استغناء المستكشفين الإيبيريين عن تلك الخبرة العربية الرائعة عند ملتقى القرنين ١٥ و١٦م، مما حملهم على الاستعانة بهذا الرصيد المعرفي؛ وأبعد من ذلك: أخذوا معهم في رحلاتهم الاستكشافية الملاحية الأولى للهند بعض الرّبابنة العرب، ومنهم ابن ماجد[١].

وقد يبدو هذا السّرد المتحيّز للصورة العربية مَثْغُوراً ما لم نعالج أسباب النزول، ونستوعب ضرورات هذا التوجه لدى المختصّين؛ ذلك أن الباحث يجد نفسه مجبراً على هذا التعاطي بسبب انعدام شبه كلّي لنصوص تاريخية مدوّنة محلّية (قبل نهاية القرن ١٥م)، تحكي قصة أو تاريخ الساحل الشرقي لإفريقيا المطل على المحيط الهندي[٢]. وتبعاً لإكراهات هذا الواقع؛ أطلق «ريتشارد هول» تسمية «الشاهد الصامت» على أهالي الساحل الشرقي لإفريقيا؛ ويظهر أن صاحبنا المولع بابتداع واختلاق التسميات قد جانبه الصواب هذه المرّة، إذ كان حرياً به الحديث عن انعدام أو ندرة الشّاهد المدوّن (الشاهد المتشبّع بتقاليد التدوين)، فالعبارة الثانية أكثر صدقيةً ودقة من الأولى[٣].

ولتفسير الظاهرة؛ نشير إلى أن منظومة الثقافة الشفاهية ظلت حاكمةً في الكثير من جهات إفريقيا المدارية وما يقع جنوبها إلى غاية القرن ١٥م. والأنكى من ذلك؛ فإن المختصين في تاريخ الساحل الشرقي للقارة جنوب مملكة الحبشة، أو بالأحرى جنوب بلاد بربرة أي الصومال، لم يعملوا على الاستفادة بشكلٍ جدّي من هذا الرصيد المعرفي في كتابة تاريخ المنطقة، تأسياً بما فعله زملاؤهم المختصون في تاريخ إفريقيا الغربية، حيث أحدثوا فارقاً كبيراً، مقارنةً مع جلّ الحقول المعرفية المساعدة في كتابة التاريخ، ولا سيما علم الآثار واللسانيات. ومن نافلة القول هنا؛ التأكيد على

(١) ما تزال سيرة الرّبان ابن ماجد محاطة بالكثير من الظلال، وكل ما نعرفه عنه أنه من أهل القرن ١٥م، والراجح أنه توفي خلال السنوات الأولى من مطلع القرن ١٦م، اسمه الكامل: شهاب الدين أحمد بن ماجد السعدي النجدي، ناهزت تجربته الملاحية بالمحيط الهندي أربعة عقود من الزمان، مما حفز الملاح المستكشف فاسكو دي غاما (ت. ١٥٢٤م) على الاسترشاد بتجربته الملاحية في سبيل بلوغ موانئ الهند شهر ماي ١٤٩٨م؛ له مجموعة من المؤلفات، يمكن إدراجها تحت اسم أدب المرشدات الملاحية، جلها جاء شعرا (أراجيز) لضرورات الحفظ، وأهم عمل نثري له في هذا الباب: (كتاب الفوائد في أصول علم البحر والقواعد). ونفس الغموض يلفّ شخصية الربان سليمان المهري، حيث لا نعرف عن حياته الشيء الكثير، وكل ما بلغنا يشير إلى أنه من أبناء جنوب اليمن (حضرموت)، عاش إلى غاية منتصف القرن ١٦م، وله أيضاً مجموعة من المؤلفات، اعتمد فيها على كتابات زميله ابن ماجد، نذكر منها: (العمدة المهرية في ضبط العلوم البحرية). انظر: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٦١٧-٦٣٥. حسن صالح شهاب، أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، رأس الخيمة: مركز الدراسات والوثائق الإمارات العربية المتحدة، الطبعة الثانية ٢٠٠٢، ص ١٩ وما بعدها.

(٢) تصعد أهم الكتابات المصدرية العربية التي أنتجها أهل ساحل الشرقي لإفريقيا (مما هو متوفر لدينا حالياً) إلى القرن ١٠هـ/ ١٦م؛ ويجمع الدارسون على أن هناك كتابات سابقة كانت متوفرة خلال القرن ١٥م أو قبله، ألمحت إليها المصادر البرتغالية إبان القرن ١٦م، بيد أن عوادي الزمن عصفت بها. ومن المصادر التي أضحت معروفة ومتداولة بين الدارسين، نذكر: مجهول، السلوة في أخبار كلوة، مسقط: وزارة التراث القومي والثقافة ١٩٨٥. شهاب الدين أحمد بن عبد القادر بن سالم بن عثمان، فتوح الحبشة، لندن ١٨٩٤. إخراج السيد أرثور سترونغ (S. Arthur Strong). شيبو فرج بن حمد الباقري، خبر لامو، قام بنشر النص وترجمته للإنجليزية: William Hichens, «Chronicle of Lamu», Bantu studies, T. 12, N. 1, 1938, pp. 1-33.

(٣) ريتشارد هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، ص ١٨. وللتوسع في قضية علاقة تقاليد التدوين بمنظومة الثقافة الشفاهية بإفريقيا المدارية أو ما يعرف بمنطقة الساحل (التي سبق التعريف بها في هامش رقم ١، ص٢٨)، ينظر: أحمد الشكري، الذاكرة الإفريقية في أفق التدوين إلى غاية القرن ١٨م، الرباط: منشورات معهد الدراسات الإفريقية ٢٠١٠.

أن العنايــة بالتراث الشــفاهي يمكنها أن تفتح أمامنا آفاقاً كفيلة بإلقاء الضوء على الكثير من اللحظــات الغامضة في تاريخ المناطق المعنية، وقد أبانت التجارب الرصينــة أن محصّلتها لا تقل في شيءٍ عن نتائج الأبحاث الأركيولوجية[١].

وغيــر خافٍ أن تاريخ الســاحل الشــرقي لإفريقيا قبــل القرن ٢هـ/٨م يلفّــه الكثير من الغموض بســبب نــدرة الشــواهد المصدرية المدوّنــة، ثم إن القليل المتوفــر منها لم يكتبه الســكان المحليون، وإنما وصلنــا من المراكز الثقافية الســائدة في العالم القديم (الإغريق، الرومان، الفرس، الســريان، الهنود، الصينيون، العرب)، وحين استعراض تلك الشذرات القليلة؛ يتضــح أنها فقيــرة في مضمونهــا، مما يجبر الدارســين على الاســتغلال الكثيف والمكثف للهامــش بغرض إرفاد المتــن، وتجلية مقاصد المقاطع الاستشهادية.

ومع مطلع القرن التاســع للميلاد وقع تحوّلٌ عميــق في تاريخ الســاحل الشــرقي لإفريقيا والجزائر القريبة منه (زنجبار، القمر، مدغشقر)، حيث بدأت تبرز هيمنة العرب المســلمين على التجــارة الملاحية بالمحيط الهندي، واســتمر نشــاطهم في تصاعــدٍ متواتر خــلال القرون اللاحقة، ممــا أثمر تثاقفاً عميقــاً بين العرب المســلمين وغيرهم من العناصر الملتحقة بدار الإسلام وبين أهل الساحل الشرقي لإفريقيا.

ولا يعزب عن البــال أنه بالموازاة مع وصول العرب بحراً إلى الساحل الشرقي لإفريقيا؛ كانت هنــاك مجموعة من القبائل العربية المســتقرة جنوب مصر تزحف تدريجيــاً نحو الجنوب منذ القرن ١٠م أيام دولة الفاطميين بمصر، واستمر زحفها حتى تغلّب الإسلام ثم الثقافة العربية في مملكة النوبة المســيحية فــي نهاية القرن ١٤م. وتحيلنا روايات ابن بطوطة أثناء ارتياده المنطقة بعد نهاية العقد الثالث من القرن ١٤م على جانب مهم من هذا الانصهار فيما بين البجاة والعرب[٢]. ولما كانت قلعة المســيحية في مملكة الحبشــة القوية واقعة في طريقهم؛ فقد تجنبوها، والتفوا عليها، وتابعوا مسيرهم وتســلّلهم نحو المناطق الواقعة جنوبها على طول الساحل القاري.

وقصارى القول: إن زحف القبائل والعناصر العربية، فيما بين القرنين ١٠ و١٥م، تم بشــكل ســلمي. ونعتقــد أن هيمنة الســيادة العربية الإســلامية على الملاحة في المحيط الهندي أثنــاء الفترة نفســها وفّرت ظروفاً مســاعدة لتمدّدهم وانتشارهم في اتجاه الجنوب، إلى أن بلغت طلائعهم جــزر القمر منذ وقت مبكر كما يذكر المســعودي[٣]. وما ينبغي التشــديد عليه

(١) أحمد الشكري، «الرواية الشفوية وصنعة التاريخ: ملاحظات أولية»، مجلة قراءات إفريقية، مجلة ثقافية فصلية محكمة متخصصة في شؤون القارة الإفريقية، العدد ٣٦، ٢٠١٨، ص ١٨-٢٩.

Julien Loiseau, «L'Islamisation de l'Afrique au moyen âge», In Trйsors de l'Islam en Afrique, de Tombouctou a Zanzibar, Confйrences-Acadйmie du Royaume du Maroc, 24 janvier 2019- 13 novembre 2020 – Rabat, 1иre йdition janvier 2021. p. 38, 44 et 49.

(٢) ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، ١: ٢٣٠، ٢: ١٠٠، ١٥٩-١٦٠. ويراجع: يوسف فضل حسن، مقدمة في تاريخ الممالك الإسلامية في السودان الشرقي ١٤٥٠- ١٨٢١م، الخرطوم: سوداتك المحدودة، الطبعة الرابعة ٢٠٠٣. ص ١٧- ٢٣، ٢٦، ٤١، ٦٠، ٦٧، ١٣٨-١٣٩.

(٣) كانت «جزر القُمُر» إلى جانب «جزيرة مدغشقر» آخر حد معلوم للعالم المعمور عن أقصى جنوب الساحل الشرقي لإفريقيا لدى العرب في العالم القديم. وحينما تتحدث المصادر العربية عن جزيرة القمر؛ فإنها لا تقصد ما يعرف حالياً بأرخبيل دولة جزر القمر أو إحداها، وإنما جزيرة مدغشقر. بيد أن هناك استثناءات مخالفة لهذا التوجه، نذكر منها إفادات المؤرخ والجغرافي المسعودي (ت. ٩٥٧م)، الذي ساح في الأرض لعدة سنوات، وركب البحر وزار الساحل الشرقي لإفريقيا جنوب مملكة الحبشة

بهذا الشأن: أن انتشار وتسلل العناصر العربية إلى منطقة الساحل الشرقي لإفريقيا، والجزر القريبة منه، إنما جاء في ركاب المسالك البرية والبحرية معاً.

وقد رافقت هذه الدينامية إنتاجات ثقافية عربية، عمّت جميع المناطق التي وصلها الملاحون العرب، ومنها الساحل الشرقي لإفريقيا والجزر المحاذية له؛ وبذلك كسبنا نصوصاً جغرافية وأدبية، شكّلت قيمة مضافة لتاريخ المنطقة، أقرّ بأهميتها جلّ المختصين، مما جعلهم يهرعون إليها ويستعينون بها في كتابة تاريخ المنطقة.

ثالثاً: خريطة الساحل الإفريقي (ساحل الزنج):

ماذا لو سألنا الشريف الإدريسي: هل كان النصف الجنوبي للقارة الإفريقية يميل شرقاً ويمتد بشكل مواز للقارة الآسيوية من جهة الجنوب؟!

لا ريب في أن بداهة السؤال ستثير حفيظته واستنكاره؛ ومهما يكن من هذا الأمر فإن المسألة تستدعي بدايةً حصر أبعاد القارة الإفريقية في مفهوم تراث الثقافات المختلفة حينئذ. ولما كان الأدب الجغرافي العربي شديد التأثر بما خلّفه اليونان، وبخاصة تراث بطلميوس (ت. ١٦٨م)، يمكننا القول إن المواضع والمواقع المعروفة نظرياً أو عملياً لدى هؤلاء لم تتجاوز جنوباً جزر الخالدات على المحيط الأطلنطي، وموقع مدينة مقديشو أو ساحل الصومال على المحيط الهندي. ونسجل في ذات الإطار: أن المعرفة المتعلقة بما يوجد جنوب خط الاستواء كانت هلامية، أو في أحسن الأحوال ظنية أو حدسية، كما أعلن عن ذلك بطلميوس في كتابه (المجسطي) (انظر أدناه: هامش رقم ٣، ص٣٣).

على أننا حينما ننتقل للإطلالة على حصيلة الأدب الجغرافي العربي، منذ ما قبل نهاية القرن العاشر للميلاد، تستوقفنا ذات الصورة بنفس الأبعاد مع متغيّر جديد ومهم، تمثل في إحاطته العملية والعلمية (على الواجهة الشرقية) بما يوجد جنوب مقديشو إلى غاية بلاد سُفالة[1]

مرتين، منها واحدة حوالي سنة ٩١٦م. وبذلك فإن إنتاجاته تنم عن خبرة ميدانية، فضلاً عن اطلاع واسع على أمهات كتب التراث العربي في مختلف الحقول المعرفية السائدة في عهده. والمسعودي يضعنا في حيرة من أمرنا أثناء كلامه عن «جزيرة قنبلو»، فلا نعرف هل يقصد بها «مدغشقر» أو غيرها من الجزر القريبة منها؟ وفي المنحى نفسه؛ نقع على إشارة للقُمُر عند ابن المجاور (كان حياً العام ١٢٢٩م)، غير أننا لا نتبيّن قصده من ذلك؛ ومثل ذلك نلاحظه لدى ابن سعيد المغربي (ت. حوالي ١٢٦٨م). وإذا ما انتقلنا للقرن ١٤م نسجل أن رحالتنا ابن بطوطة زار مدينة كلوة حوالي سنة ١٣٣١م، وهي من آخر القلاع الحضرية الإسلامية بمنطقتنا، إلا أنه لم يشر بتاتاً لجزيرة مدغشقر أو جزر القمر. انظر: المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، ج١: ٨٤-٨٥. ابن المجاور، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز (المسماة تأريخ المستبصر)، القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية ١٩٩٦. راجعه ووضع هوامشه: ممدوح حسن محمد. ص ١٣٥. ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، بيروت: المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع ١٩٧٠، حققه إسماعيل العربي. ص ٨١-٨٥، ٨٧. ابن بطوطة، تحفة النظار، ٢: ١١٤-١٢٣.

(١) يأتي اسم سُفالة لدى الجغرافيين والفلكيين والربابنة (المعالمة) العرب للإشارة إلى أقصى منطقة جنوب القارة الإفريقية، تعرّفوا عليها. ومنهم من يضع وراءها بلاد الواقواق، بيد أن معرفتهم بالأرض الأخيرة غلب عليها الطابع الأسطوري، أكثر من الطابع العلمي والعملي، إذ لم يسبق لأحد من العرب المسلمين أن نزل بها ليقوم كلامه شاهداً حياً ومباشراً عنها. ومثلما هناك سفالة الساحل الشرقي لإفريقيا؛ تداولت مصادرنا العربية تسمية مماثلة بخصوص جنوب شبه القارة الهندية: سفالة الهند. وواضح أن الاسم مستلهم ومشتق من معنى الأسافل لغةً. ولو أردنا مطابقة معنى سفالة «الزنج» بالأبعاد الجغرافية الحالية؛ لقلنا إنها تنطبق على جُلّ الفضاء المشكّل حالياً لدولة موزمبيق. وللملاح العربي ابن ماجد أرجوزة، سماها (السُّفالية)، تحدث فيها عن كل ما يتعلق بأمور الملاحة البحرية في ساحل سفالة. يراجع: حسن صالح شهاب، أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، ص ٥٥، ٧٥، وخاصة ص ١١٣ وما بعدها.

المقابلة لجزيرة مدغشقر. وشملت هذه المعرفة العملية- أيضاً- الجزائر القريبة من الساحل المذكور، مثل جزيرتَي زنجبار ومدغشقر، ناهيك عن جزائر القمر الواقعة في مدخل الخليج الفاصل ما بين جزيرة مدغشقر والساحل الإفريقي. وقد درج الجغرافيون العرب على تسمية الساحل المنوّه به، الممتد من مقديشو إلى سُفالة: «بحر الزنج»، فيما أطلقوا على اليابسة المحاذية له تسمية «برّ الزنج»[1].

ووفق ما تقدم من معطيات علمية وعملية؛ فإننا تجاوزنا خط الاستواء بمسافة معتبرة تُعدّ بمئات الأميال أو الكيلومترات؛ وأضحى أقصى جنوب القارة الإفريقية في متناولنا، إذ لم يعد يفصلنا عما سيُعرف لاحقاً برأس الرجاء الصالح سوى مجرى يومين أو ثلاثة على أكبر تقدير، انطلاقاً من آخر موقع تعرّف عليه العرب المسلمون بالمنطقة، وهو (دغوطة)[2].

(١) خلال المراحل الأولى من تشكّل وانبثاق علم الجغرافيا لدى العرب، خاصةً خلال القرن ٨ ومطلع ٩م، يظهر أنه استند على المعلومات التي وفّرها التراث الهندي والفارسي والسرياني واليوناني والروماني عن الواجهة الشرقية لإفريقيا وغيرها من جهات المعمور، وهذا ما استوقف غير واحد من أصحاب مصادرنا، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر: صاعد الأندلسي (ت. ١٠٧٠م)، الذي حاول في مجمل كتابه (طبقات الأمم) إبراز مختلف الروافد المؤثرة في الثقافة العربية الإسلامية. انظر: صاعد الأندلسي، طبقات الأمم، بيروت: دار الطليعة للطباعة والنشر- ١٩٨٥، تحقيق: حياة بوعلوان، ص ٥٤-١١٠. وبالنسبة لأصل كلمة «الزنج»؛ فإن الأبحاث لم تصل بعدُ إلى قول حاسم، وإن كان البعض يميل إلى أن أصل الكلمة فارسي (زنكي)، ومنه اشتق معنى الأسود. انظر: كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي، ص ٢٠-٢٧، ٤٠٥، ٦١٤-٦١٦. وتراجع أطروحة جيهان ديزانج:

Jehan Desanges, Recherches sur l›activitй des Mйditerranйens aux confins de l›Afrique (VIe siиcle avant J.-C. - IVe siиcle aprиs J.-C.) Rome -: Йcole Franзaise de Rome, 1978. p. 262, 330 ,335 et-360.

(٢) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ٨٥.

غير خافٍ أن تاريخ الساحل الشرقي لإفريقيا قبل القرن 2هـ/8م يلفّه الكثير من الغموض بسبب ندرة الشواهد المصدرية المدوّنة، ثم إن القليل المتوفر منها لم يكتبه السكان المحليون

إن السؤال الذي يفرض نفسه بهذا الشأن: لماذا كلما حاول العقل الجغرافي العربي (فيما بين القرنين ٩ و١٥م) الحديث عن المناطق الواقعة جنوب خط الاستواء، مال إلى النهل من أصل التراث اليوناني أو مما تُرجم منه إلى العربية في علمَي الفلك والجغرافية، مع طرح إضافات غير ذات أهمية بالغة من الناحية الجغرافية؟[3].

(٣) نود التأكيد هنا على: أن جُلّ الإشارات المصدرية لدى الجغرافيين والرحالة العرب، مما تعلق بالمناطق الواقعة جنوب خط الاستواء، اتسمت في مجملها بالضبابية والتشويش مع ما يتصل بذلك- عادةً- من حكايات ذات بعد عجائبي أو غرائبي. وأصل الحكاية مرتبط عندهم بما أخذوه عن الفلكي بطلميوس (ت. حوالي سنة ١٦٨م) في كتابه (المجسطي): «أما أن في خط الاستواء مساكن؛ فإنه لم يصلنا إلى هذه الغاية من ثَمّ أحد؛ فقولنا إنه معمور أو ليس بمعمور إنما يجري مجرى الحدس»، وفي صياغة أخرى لنفس الفكرة: «فأما العلم بأن ما تحت هذا الخط (خط الاستواء) مسكوناً (كذا) فلسنا نجد بذلك علماً؛ لأنه لم يسلكها أحد ممن في بلادنا المسكونة إلى يومنا هذا». وقد حاول ابن خلدون (ت. ١٤٠٦م) تلخيص ما انتهى إليه بهذا الشأن، فقال: «(...) ومن هنا أخذ الحكماء خلاء خط الاستواء وما وراءه. (...) فالعمران فيه إما ممتنع أو ممكن أقلّي.(...) فإن خط الاستواء والذي وراءه، وإن كان فيه عمران كما نقل، فهو قليل. (...)، وليس وراءه (خط الاستواء) هنالك إلا القفار والرمال وبعض عمارة، إن صحت فهي كَلَا عمارة. (...)، وليس وراءهم (لملم) في

والحال أن جلّهم، كما رأينا سواء قبل أو بعد القرن ١٠م، قد أمدونا بمعطيات جديدة، وقدّموا لنا لوحة خصبة عن الساحل الشرقي لإفريقيا وأهله، لا عهد لنا بها في أي تراث جغرافي نعرفه حينئذ. زد على ذلك، أن المعلومات التي وفّروها عن منطقتنا، تتمتع بمصداقية لا تضاهى. ويؤكد ذات الرصيد الجغرافي العربي على أن ساحل أو برّ «الزنج»، ينتهي ببلاد سُفالة المقابلة لجزيرة مدغشقر، وعند البعض منهم ينتهي جنوباً إلى بلاد أو جزيرة الواقواق[١].

يتضح مما تقدم: أن جلّ المجال أو الإقليم المعني في كتاباتهم (بر الزنج)، يقع جنوب خط الاستواء؛ فلماذا لم يلتفتوا لهذا الأمر؟ أو بالأحرى لماذا لم يعلنوا عنه في سبيل التوفيق فيما بين التصورات النظرية المستلهمة من التقسيم البطلمي للعالم المعمور، وبين المعطيات الواقعية التي توفرت لهم من خلال المعاينة المباشرة، أو من خلال استفسار تجار وبحّارة المحيط الهندي؟. ومثل هذه المبادرة، كانت ستحفزهم لا محالة على تصحيح التّصور البطلمي؛ مثلما فعل البرتغاليون أثناء استكشافهم لسواحل المحيط الأطلنطي؟[٢]

واللافت للنظر في هذا الباب أنه لا أحد من أصحاب الشهادات المصدرية العربية، من الجغرافيين والفلكيين والرحالة والربابنة المعالمة، وغيرهم ممن خلّفوا كتابات حول الساحل الشرقي لإفريقيا الواقع فيما بين مقديشو وسُفالة، انتبه للأمر وانشغل به كقضية محورية قمينة بدحض التصور البطلمي؛ ومما يبعث على الدهشة في هذا الجانب أيضاً أن البعض منهم كان يخبرنا تلميحاً أو تصريحاً بأننا في مواضع مختلفة من ساحل «الزنج»، قد تجاوزنا في اتجاه الجنوب خط الاستواء بقليل أو كثير. بل إنه ما كاد القرن ١١م يطل علينا حتى ترسخت لديهم معلومات أكيدة عن ساحل إفريقيا الشرقي، بلغت حدّ «خط عرض ٢٠

الجنوب عمران يُعتبر، إلا أُناسيّ أقرب إلى الحيوان العُجم من الناطق، يسكنون الغياض والكهوف، ويأكلون العشب والحبوب غير مُهيأة؛ وربما يأكل بعضهم بعضاً، وليسوا في عداد البشر». انظر: مؤيد الدين العرضي (ت. ١٢٦٦م)، كتاب الهيئة، بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ط ٢، ١٩٩٥. تحقيق وتقديم: جورج صليبا. ص ٥١-٥٢. ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر، الكتاب الأول (المقدمة)، الجزء الأول، ص ٨٥-٩٥، ١٤٨.

(١) يُرسم الاسم في المصادر العربية متصلاً أو منفصلاً: الواقواق أو الواق واق. والواقع أن الكلام عن هذا الجزء الغامض من العالم المعمور غالباً ما يأخذ- في ذات المصادر- طابعاً أسطورياً. انظر: ابن خرداذبه، المسالك والممالك، ليدن: مطبعة بريل ١٨٨٩. تحقيق دي كوجي. ص ٦٩-٧٠. المسعودي، مروج الذهب، ج ١: ٨٤. المروزي، الطبيب شرف الزمان طاهر (كان حياً العام ١١٢٠م)، أبواب في الصين والترك والهند منتخبة من كتاب طبائع الحيوان، نشر مع ترجمة إنجليزية: ف. مينورسكي، لندن: كيمبردج ١٩٤٢. ص ٥٠. مجهول (من أهل القرن ١٣م)، كتاب غرائب الفنون ومُلح العيون، رسالة جامعية لنيل درجة الماجستير في التاريخ، كلية الدراسات العليا، الجامعية الأردنية ٢٠٠٨ (مرقونة). دراسة وتحقيق: المهدي عيد موسى الرواضية. ص ٣١٤-٣١٥. ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، الكتاب الأول (المقدمة)، ١: ٧٧. ويراجع: ريتشارد هول، إمبراطوريات الرياح الموسمية، الفصل ٣: لغز أبناء بلاد الواقواق، ص ٤٩ وما بعدها.

(٢) بمجرد ما تجاوز البرتغاليون خط الاستواء أثناء استكشافهم لسواحل القارة الإفريقية المطلة على المحيط الأطلنطي، خلال الثلث الثاني من القرن ١٥م، أقروا بذلك وأعلنوا عنه، ثم أخذوا يصححون أقوال بطلميوس في الأمر، حيث لفتوا الانتباه إلى أن المناطق الواقعة جنوب خط الاستواء مأهولة بالبشر مثلما هو الحال بالنسبة للمناطق الواقعة شماله. وفي هذا الباب؛ نلاحظ أن الموضوع حظي بالتفاتة من جانب المُعلّم ابن ماجد، بيد أن جرأته العلمية خانته أمام طغيان سيادة المنجز البطلمي بهذا الشأن. انظر: ابن ماجد، كتاب (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد)، مخطوطة الكونجرس الأمريكي لابن ماجد، ينظر الورقة رقم ٦٣ ثم ٦٧-٦٩ (أو الفائدة العاشرة). والرابط إليها: https://ia801301.us.archive.org/7/items/fawaid001_201512/fawaid001.pdf

درجة جنوباً».

وقد نجد تفسيراً موضوعياً لهذه الحالة المضطربة في إحدى الخلاصات المهمة، مما انتهى إليه المستعرب الروسي كراتشكوفسكي بعد معاشرة طويلة للمتون الجغرافية العربية القُرُسْطَويّة، وهي خلاصة تتمتع في نظرنا بصدقية ومصداقية بالغة، كما أنها تدلنا على فطنة معرفية عزّ نظيرها، ومما جاء عند صاحبنا، قوله: «والعيب الأساسي للأدب الجغرافي العربي هو في خضوعه للنظريات العلمية الموروثة عن الأوائل، بالرغم من أن تجارب العرب العملية كثيراً ما أدت إلى استكمال تلك النظريات وتعديلها، بل وحتى إلى صرف النظر عنها؛ أضف إلى هذا أن نظرياتهم العلمية لم ترق إلى مستوى تجربتهم العملية»[1].

إننا أمام قضية شديدة التعقيد، يصعب الإحاطة بتفاصيلها هنا[2]، وإلى أن نعود إليها أو يقوم غيرنا بذلك، نكتفي هنا باستحضار تصور الجغرافية العربية لأبعاد النصف الجنوبي للقارة الإفريقية، على اعتبار أن تصورها للنصف الشمالي من القارة لا يثير- إجمالاً- مشاكل مستعصية.

وخلاصة مفهوم المعطيات المتاحة، قبل نهاية القرن ١٥م، توحي بأن الجغرافيين والفلكيين العرب كانت لديهم قناعة راسخة واعتقاد مكين في أن النصف الجنوبي من القارة الإفريقية لا يتعمق جنوباً، وإنما يميل ويمتد في اتجاه الشرق إلى أن يصبح موازياً للقارة الآسيوية من جهة الجنوب، ويستمر هذا التوازي ممتداً إلى الحد الذي يكاد فيه طرفا نهاية القارة الإفريقية ونهاية القارة الآسيوية يلتصقان، وبذلك يصبح المحيط الهندي عبارة عن بحيرة شبه مغلقة مثلما الحال مع البحر الأبيض المتوسط، يتقابل على ضفتيها الشمالية والجنوبية ساحل آسيا مع ساحل النصف الجنوبي للقارة الإفريقية.

وهذا التصور العربي يستهدي، كما يذكر كراتشكوفسكي (ص٣١٦)، ولو بقدر قليل برأي بطلميوس «في ميل الطرف الجنوبي لإفريقيا نحو الشرق».

وحينما نمعن النظر في مُصوّرة العالم المعمور (الخريطة) التي صنعها الشريف الإدريسي، لولي نعمته روجار الثاني ملك صقلية، نجدها تفيد المقاصد نفسها المبسوطة، إذ تجعل سُفالة «الزنج» جنوباً قبالة الهند شمالاً، وبلاد الواقواق قبالة الصين[3].

(١) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ٧٩-٨٥، ٩٨. الإمام تقي الدين علي بن عبد القادر المقريزي (ت. ١٤٤٢م)، الإلمام بأخبار من بأرض الحبشة من ملوك الإسلام، القاهرة: المكتبة الأزهرية للتراث ٢٠٠٦. تحقيق وتعليق ودراسة: عبد النعيم ضيفي عثمان عبد النعيم. ص ١٠١. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص ٢٦، ٢٧٠، ٦٤٤.

(٢) سبق لإسماعيل العربي أن أثار جوانب مهمة من هذه الإشكالية منذ ما يزيد عن نصف قرن من الزمان. انظر التقديم الذي صدّر به تحقيق مؤلف ابن سعيد (كتاب الجغرافيا)، ص ٥٧-٧٣. وكذلك فعل البحّاث الفرنسي أندري ميكيل Andrй Miquel بعد سنوات قليلة من ذلك. تنظر على الخصوص الصفحات: ١٢٧-١٣٠.
Andrй Miquel, Gйographie arabe, op. cit., T. 2 Vol. 1, Ch. 4. pp. 127-202.

(٣) توجد خريطة الشريف الإدريسي، في نسخة مُكبّرة عن الأصل، معلقة عند مدخل مدرج يحمل اسم «جغرافينا» بكلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط. وأذكر أيام الدراسة الجامعية بذات الكلية سنوات ١٩٨٢-١٩٩١، أنه كثيراً ما كانت تلك الخريطة/ التحفة تستوقفني، وكأن بها شيئاً من السّحر يشدّ كل من مرّ بالقرب منها؛ وكنت كلما وقفت أمامها أجدني عاجزا عن فهمها وفك شفرتها، وكأنها طلاسم معقدة. والخريطة متوفرة حالياً بالشبكة العنكبوتية، والرابط إليها: https://ar.wikipedia.org/wiki/%D9%85%D9%84%D81%:Al-Idrisi%27s_world_map.JPG

(خريطة العالم) للشريف الإدريسي

بعد بسط الرسم الخرائطي لمُصورة العالم المعمور، الذي يجعل سواحل الهند مقابلة لسواحل سُفالة «الزنج» من جهة الجنوب، ينتقل بنا الشريف الإدريسي للتعبير عن نفس الفكرة بلغة أهل الجغرافيا، ومما جاء عنده بهذا الخصوص (النزهة، ١: ٧٩)، قوله: «إن هذا البحر الهندي على جنوبه [ليس غربه] قطعة من بلاد سُفالة التي قدمنا ذكرها». وقبل ذلك بحوالي القرنين من الزمان، نجد عند الإصطخري (ت. ٩٥٧م): «وأما أرض الزنج، فإنها أطول من بلاد السودان، ولا تتصل بمملكة غير الحبشة، وهي بحذاء اليمن وفارس وكرمان إلى أن تحاذي أرض الهند»[١].

وليس غريباً والحالة هذه أن يتحدث الأديب والجغرافي ابن سعيد المغربي عن علاقة أُخوّة فيما بين «الزنوج» وأهل الصين، ثم فيما بينهم وأهل الهند والسند، فكل هذه الشعوب في نظره متجاورة، مجاورة العرب للفرس[٢].

وجرّاء هذا الاعتقاد، السائد وقتئذ في العالم القديم، كانت هناك حيرة في توطين بلاد الواقواق: هل هي آخر بلاد معلومة في أسافل القارة الإفريقية؟ أو هي آخر حدّ العالم المعروف شرق الصين؟ ومثل ذلك كان سائداً لدى الأوروبيين حين محاولتهم توطين مملكة الراهب يوحنا Prêtre Jean، إذ كانوا تارةً يزعمون أنها بإفريقيا، وتارةً أخرى بأقصى شرق آسيا[٣].

ونعتقد أنه لنفس العلة كانت «بلاد السودان» لدى الشريف الإدريسي ممتدة من غرب منطقة الساحل (منطقة السنغامبيا) المطلة على المحيط الأطلنطي إلى غاية سُفالة الهند شرقاً[٤]. ولربما بسبب هذا الاعتقاد الراسخ لدى الجغرافيين والفلكيين العرب لم تكن هناك محاولات من جانب الملاحين العرب لبلوغ أسافل إفريقيا والالتفاف عليها، إذ تصبح مثل

(١) أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي الإصطخريّ المعروف بالكرخيّ، مسالك الممالك، ص ١١. والتشديد مني. وكما أن الإصطخري عوّل في تأليفه على البلخي؛ فإن ابن حوقل- هو الآخر- اقتبس جُلّ ما عند الإصطخري مع إضافات مقدّرة فيما تعلق بالغرب الإسلامي، ومما جاء عنده: «والحبشة ناحية ومملكة عريضة (...)، وهي تجاه اليمن وفارس وكرمان إلى أن تحاذي بعض أرض الهند. وأرض الهند تجاه بلاد الزنج من جانب بحر فارس (يقصد المحيط الهندي) الشرقي». انظر: ابن حوقل النصيبي، صورة الأرض، بيروت: منشورات دار مكتبة الحياة ١٩٩٢. ص ٢٥.

(٢) ابن سعيد، كتاب الجغرافيا، ص ٨١، ١٠٣.

(٣) الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ١: ٧، ٧٩، ٩١. الشريف الإدريسي، أُنس المُهج وروض الفُرج، ص ١١٠، ١٣٧، ٢٦٠. بيرو طافور، رحلة طافور في عالم القرن ١٥م، بور سعيد: المكتبة الثقافية الدينية ٢٠٠٢. ترجمة وتقديم الدكتور حسن حبشي. ص ص ٤٤، ٦١، ٧٨-٨١، ٨٥، ٨٨، ٩٢.

Marianne Mahn- Lot, Portrait historique de Christophe Colomb, Paris : Edition du Seuil, 1988. p. 33 et 123. Jean-Charles Ducиne, « L'Afrique dans les mappemondes circulaires arabes mиdiиvales : Typologie d'une repriиsentation », CFC n°210, diиcembre 2011. p. 24.

(٤) الشريف الإدريسي، أُنس المُهج وروض الفُرج، ص ٩٢، ١١٠، ٢٦٠. ونميل إلى الاعتقاد أن ميل سحنة بعض القبائل الهندية للسواد؛ كان من العوامل المرجّحة لدى الإدريسي لكل هذا الامتداد الجغرافي «للسودان ولبلاد السودان».

هذه المغامرة- بناء على التصور السائد حينئذ- غير ذات فائدة مرجوة؛ والأدهى من ذلك: أنها ستلج بنا، أو بالأحرى سترمينا في مجاهيل البحر المحيط باليابسة، الذي «لا يُعلم منتهاه» على قول المسعودي والشريف الإدريسي ومن جاء بعدهما.

ثم هب أننا طمعنا في التوغّل والخوض فيه، إيماناً منّا بكروية الأرض[1]، فماذا ستكون النتيجة المتوقعة عصرئذ؟

إن الجنوح إلى تحقيق وترجمة هذه الأمنية سيؤدي بنا لا محالة إلى بلاد الصين، لكن بعد رحلة طويلة جداً (على امتداد شهور عديدة)، ومهلكة أو غير مأمونة الجانب بسبب ظلام البحر وأمواجه العاتية؛ بينما الصين أمامنا وقريبة منا في مسالك ومجاري قديمة معروفة ومشهورة، والوصول إليها انطلاقاً من موانئ البحر الأحمر أو الخليج العربي أو سُفالة، لا يتطلب أكثر من ستة أسابيع في أصعب الحالات، تتخللها توقفات في عدد من المحطات أو الموانئ[2].

أبعد من هذا؛ ونحن نستحضر الخلفيات التي حفّزت حركة الكشوف الإيبيرية خلال القرنين ١٥ و١٦م، نتساءل هنا: ما الحافز الذي يمكن أن يغري العربي المسلم، سواء كان حاكماً أو تاجراً أو ربّاناً (في ظل التصور الذي بسطناه للعالم المعمور) للإبحار في عرض أو أعالي البحر المحيط باليابسة؟ لا شيء تقريباً؛ علماً أن العرب المسلمين كانوا يحتكرون الوساطة التجارية في جلّ أرجاء المحيط الهندي والكثير من سواحل البحر المتوسط، وليس هناك ما يدعوهم ويحرضهم للإقدام على مثل هذه المغامرة المحفوفة بالمخاطر والتّلف!

وقد يتجرأ البعض على مثل هذا الاعتقاد، مفترضاً أو متسائلاً: ماذا لو كان لديهم غرض معرفي يرمي إلى رصد واقع صورة الأرض، أو بالأحرى استكشاف مجاهل البحر المحيط باليابسة؟

ليس لدينا في الشهادات المصدرية العربية ما يحملنا على طرح السؤال أو ما يمكن أن

(١) فكرة كروية الأرض قديمة، أخذتها الثقافة العربية الإسلامية عن التراث اليوناني (أرسطو، استرابون، بطلميوس)، ثم عملت على تأكيدها دينياً (أثناء تفسير بعض الآيات القرآنية ذات الصلة بالموضوع، مثلما فعل فخر الدين الرازي في مفاتيح الغيب: سورة الرعد، وعلمياً من خلال بعض المؤشرات، منها تجربة علاقة النّاظر للسفينة وهي تبتعد عن الساحل أو عند عودتها من عرض البحر صوب الساحل. انظر: خرداذبه (ت. ٩١٢م)، المسالك والممالك، ليدن: بريل ١٨٨٩م. تحقيق دي كوجي. ص٢. مطهر بن طاهر المقدسي (ت. ٩٦٦م)، كتاب البدء والتاريخ، بغداد: مكتبة المثنى (د. ت.)، الجزء ٢ الفصل السابع: ص ١- ٢٩. المسعودي مروج الذهب، ١: ٦٩، ١٦٦- ١٦٧. الإدريسي، نزهة المشتاق، ١: ٧-٨. مؤيد الدين العرضي، كتاب الهيئة، ص ٢٩، ٣٨- ٤٠. ابن خلدون، كتاب العبر، الكتاب الأول (المقدمة)، الجزء الأول، ص ٧٣.

(٢) جُلّ الإفادات التي توفرها المصادر العربية عن الملاحة في ساحل سفالة المقابل لجزيرة مدغشقر، تلمح أو تؤكد صراحةً على صعوبة الأمر هنالك بسبب الأعاصير القوية. وفي هذا السياق؛ ينبغي التذكير بأن ربابنة السفن، إلى حدود نهاية القرن ١٥م، كانوا يسلكون المجاري الساحلية المحاذية للبرّ (المساحلة) Cabotage =، وقلما غامروا في عرض البحر وتوغلوا في أعاليه إلا عند الضرورة القصوى. زد على ذلك: أن السفينة التي تخوض في عرض البحر لمدة تناهز ثلاثة أسابيع تُعتبر محظوظة إذا قُدّر لربّانها أن يقودها لبرّ الأمان (اليابسة). وعلينا في هذا الباب أن نستحضر الصعوبات التي عاناها كريستوف كولومبوس مع الملاحين المرافقين له أثناء رحلته الأولى لاستكشاف أمريكا (الهند الغربية / العالم الجديد) سنة ١٤٩٢م، إذ بعد أن مرّت عليهم ثلاثة أسابيع في البحر دون رؤية اليابسة، ثاروا وأخذوا يطالبون كولومبوس بالعودة للديار. وتلك الصعوبات عانى شدائدها فاسكو دي غاما أثناء عودته من الهند متوجهاً لمقديشو، حيث فقد خلالها ٣٠ رجلاً أي ثلث الطاقم المرافق، مما جعله يصف تلك العودة بالمغامرة المهلكة. انظر: Marianne Mahn- Lot, Portrait historique de Christophe Colomb, op. cit., pp. 78-79. Vasco da Gama (1469-1524), Journal du voyage de Vasco da Gamma en M. CCCC. XCVII / traduit du portugais par Arthur Morelet, 1864. pp. 79-80.

يشـــجعنا عليه، حتى لو استحضرنا كتابات أكبر الربابنة العرب حينئذ: (المعلم ابن ماجد). والعلّة في ذلـــك، فضلاً عما اســـتوقفنا من معيقات، اعتقادهم الراســـخ في ســـيادة الظلام بالبحر المحيط، ولا يعقل أن نطلـــب من أحد الربابنة المعالمة- عارف أو مؤمن بهذه الحيثيات- قيادة سفينته في ظلام دامس وسرمدي! ولست أدري هل كان هذا المانع هو السبب القاهر الذي أقعد وأعجز ابن ماجد عن الخوض في ساحل سُفالة ومـــا يوجد قبالته من جزائـــر، وبخاصة جزيرة مدغشقر[1].

هنا، يتبادر إلى الذهن ســـؤال طالما أزعج المختصين في قراءة الخرائط التاريخية، وأيضاً المختصين فـــي تتبع الرحلات الاستكشـــافية الملاحية الإيبيرية خلال القرنين ١٥ و١٦م: هل كانت للملاحين العرب الوســـائل التقنية الكفيلة باستكشاف نهاية القارة الإفريقية (رأس الرجاء الصالح)، والعمل على تجاوزها بغرض الخوض في عرض المحيط الأطلنطي؟

نعتقـــد جازمين أن الملاحيـــن العرب كانوا يتملكون جلّ العناصر والوســـائل التقنية الكفيلة بتحقيق هـــذه الرغبة لو أنها راودتهم وشـــغلت بالهـــم[2]، بيد أنها كانت بعيـــدة عن تصوراتهم، ولذلك لم يعملوا على ترجمتها في إطار مشروع علمي على غرار مشروع «بيت الحكمة»، خاصةً أيام الخليفة العباســـي المأمون (٨١٣-٨٣٣م). هل كان الســـبيل إلى ذلك معاقاً بالتّصور الذي بســـطنا معالمه قبل قليل؟ أو أنهم فعلاً تجرؤوا على بحر الظلمات (المحيط الأطلنطي)، وبلغوا سواحل أمريكا (الدنيا الجديدة، الهند الغربية) قبل الرحلة المشهورة لكريستوف كولمبس العام ١٤٩٢م؟[3]!

(١) كل من تصفح تأليف ابن ماجد (الفوائد في أصول علم البحر والقواعد) يستغرب إشاراته الخاطفة إلى مقدشوه وزنجبار وبراوة ومنبسة وكلوة وأرض سفالة؛ والأمر نفسه ينسحب على جزيرة القمر (يقصد مدغشقر)، إذ لم يخصص لها سوى أسطر قليلة مع أنه اعتبرها ثاني أهم الجزر في العالم وقتئذ. ونستشف من كلامه- وقد نكون مخطئين- أن الظروف لم تسعفه حتى ينزل ويقيم بجزيرة مدغشقر، فاعتمد فيما كتبه عنها على الأهـالي وبعض الربابنة ممن ارتادوها. انظر: حسن صالح شهاب، أحمد بن ماجد والملاحة في المحيط الهندي، ص ٥٥، ٧٥، ١١٣-١١٥، ١٥٥، ١٥٩. ويراجع متن (كتاب الفوائد) لابن ماجد، مخطوطة الكونجرس الأمريكي (التي وثقنا الرابط إليها في الهامش رقم ٢، ص٣٤)، ينظر الورقة رقم ٦٣ ثم ٦٧-٦٩ (أو الفائدة العاشرة).

(٢) إن أهم ما تشدّد عليه العناصر الإخبارية، بخصوص المعطيات التقنية للملاحة العربية بالمحيط الهندي، يتمثل في كون سفن هذا البحر ومراكبه لا تعتمد في صناعتها على المسامير الحديدية كما الحال في البحر المتوسط وغيره من البحار، وإنما تُخاط أو تشدّ الألـواح المشكّلة لأجـزاء السفينة بالألـياف أو الحبال المنسوجة من ليف شجر النارجيل (جوز الهند)، مما يجنّب السفن الانكسارات حين الارتطام بالصخور المرجانية، ويمنحها مرونة مناسبة في الإبحار، خاصة في الخلجان الضحلة أو المياه الرقيقة بتعبير أصحاب مصادرنا، ويساعدها في ذلك قاعدتها العريضة، فضلاً عن الجلفطة بشحم الحوت. زد على ذلك: أنها كانت تستعمل الشراع المثلث، الذي عادةً ما يُعين السفينة على الصمود في وجه الرياح المعاكسة، بل واختراقها واقتحامها. وإذا أضفنا إلى ذلك استعانة الربابنة المسلمين بالبوصلة والمرشدات الملاحية، ناهيك عن خبرتهم الواسعة في التعامل مع الرياح الموسمية؛ كل ذلك يجعلنا ندرك كيف أمكنهم بسط هيمنتهم على الملاحة في المحيط الهندي من منتصف القرن ٨ إلى غاية نهاية القرن ١٥م. وفيما بسطناه من معطيات، يوفر أسباب النجاح لأية مغامرة ملاحية عربية في المحيط الأطلنطي، بنفس القدر أو أكثر مقارنةً بالبرتغاليين أو الإسبان. انظر: المسعودي، مروج الذهب، ج ١: ١٢٧. الشريف الإدريسي، نزهة المشتاق، ١: ٩٤. ابن بطوطة، تحفة النظار، ٢: ٩٨ هامش رقم ٧، ص١٢٧- ١٢٨. حاجي خليفة (ت. ١٦٥٦م)، تحفة الكبار في أخبار البحار، تحقيق وترجمة: محمد حرب وتسيم حرب، إستانبول: دار البشير للثقافة والعلوم ٢٠١٧. ص ٢٤٢. كراتشكوفسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ص٦١٧-٦٣٥. خوان غرنيط، «هل هناك أصل عربي إسباني لفن الخرائط البحرية»، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، العدد١ سنة ١٩٥٣، تعريب الأستاذ مختار العبادي، ص ٧١-٩٦.

(٣) من هو مكتشف أمريكا؟ هل هو كريستوف كولمب أو

الأقــرب للصواب؛ أنــه في ظــل التّصور الجغرافي الســائد لديهم عــن العالم المعمور يصعب، ويشــقّ على أيٍّ كان، وقتئذٍ أن يفكّر في الخروج من المحيط الهندي إلى البحر المحيط باليابســة (المحيط الأطلنطي المظلم) بهدف الوصول إلى ســواحل الصين أو أقصى شــرق آســيا، إذ إن مثل هذه الفكرة تبدو في نظرهم عبثيــة، ولا طائل من ورائهــا، فكان الأحرى ألا يُقدموا عليها، لذلك لم يفكروا فيها.

وما ينبغي استحضاره هنا: أن موقع الخروج نحو البحر المحيط، في ظل التصور السائد، لا بد وأن يكون قريباً من الصين، فلماذا نلفّ الدنيا بأكملها للوصول إلــى منطقة، هي أصلاً قريبة منا! بيد أن هذا الطّرح لا ينفي وجود مغامرات لملاحين عرب أو غيرهــم، ربما وصلوا صدفةً أو رمت بهم الأقدار إلى ســواحل العالم الجديد (أمريكا) خلال القرن ١٤ أو ١٥م.

وعلى فرض أن أحد الربابنة العرب، المشهود لهم بالتجربة الطويلة والحنكة الرفيعة في ركوب أمواج المحيط الهندي، شأن المعلم ابن ماجد أو زميله سليمان المهري[١]، تاقت نفسه إلى خوض هذه المغامرة، هل كان إنجاز مثل هذا المشروع ممكــن التحقيق دون تمويل ورعاية دولة مركزية قوية ونافذة، قادرة على تمويل المشروع وحماية مكتسباته على جميع الصّعد في الساحة الدولية حينئذ؟[٢]

وإذ نلح على جانب الحماية والتمويل المالي؛ فلأن العنصر الأول ضروري لتأمين النتائج، كما أن العنصر الثانــي المتمثل في التمويل المالي، كفيل بتغطية تكاليف التجــارب، التي تفرضها الصعوبات الملاحية جراء الأعاصير القوية في ساحل سُــفالة المقابل لجزيرة مدغشقر (ابن ماجد: السّــفالية). ومن غريب الصدف أن تلك الصعوبات- تقريباً- واجهتها التجارب الملاحية البرتغالية على الساحل الأطلنطي المقابل لجزر الخالدات قبل اختراع سفن «الكارافيل»، ونجاح اســتعمالها في الملاحــة الثَّبَجِيّة، أو ما يُعرف بالملاحة في أعالي البحار.

أخيراً؛ هنــاك عامل محبط، قلّما انتبه إليه الدارسون، ويتمثل فيما يمكن تسميته بـ«أسطورة لعنة نوح»[٣]، التي بلورت وكيّفت الوعي أو العقل

سبقه إلى ذلك ربابنة وملاحون من الصين وبلاد العرب والمسلمين؟ تُعدّ هذه الإشكالية إحدى القضايا التي شغلت بال عدد غير قليل من الباحثين منذ عدة عقود. انظر: فؤاد سزكين، اكتشاف المسلمين للقارة الأمريكية قبل كريستوفر كولومبوس، ص ٥٠-٦٠، ٦٨.

Marianne Mahn- Lot, Portrait historique de Christophe Colomb, op. cit., pp. 64-67.

(١) بخصوص سيرة الرجلين؛ يراجع مضمون الهامش رقم ١، ص٣٠؛ ويكفي هنا للتدليل على كفاءة أسد البحار المعلم أحمد بن ماجد وحنكته الملاحية البالغة، أنه أخذ الملاح فاسكو دي اما (مستكشف طريق الهند) من السواحل الشرقية لإفريقيا (وبالضبط من ماليندي) إلى الهند في ظرف زمني لا يتعدى ٢٤ يوماً، بينما تطلبت عودة فاسكو دي غاما (دون مساعدة أحد) من ساحل مليبار بالهند إلى مقديشو فترة زمنية ناهزت ثلاثة أشهر، علماً أن مسافة الذهاب كانت أكثر طولاً من مسافة العودة.

Vasco da Gama (1469?- 1524), Journal du voyage de Vasco da Gamma, op. cit., p. 39, 79-82.

(٢) في الوقت الذي كانت فيه البلاطات الأوروبية تتخطّف وتتنافس في استقطاب أمهر المعالمة الربابنة، وتغريهم بالمنح والإقطاعات والعطاء الجزيل، بل وتمكّنهم من المقامات الرفيعة، التي تكاد تضاهي منزلة الأمراء المقربين من رأس السلطة العليا بالبلاد؛ في الآن نفسه؛ نلاحظ أن البلاطات العربية الإسلامية النافذة، خلال القرن ١٥م، لم يكن لها أي سعي جاد في هذا المنحى (أقصد الجانب العلمي والعملي في استكشاف مجاهيل البحار، لا غير)، ولذلك لم يعمل أحدٌ منها على استقطاب ابن ماجد واحتضان أعماله المعتبرة وطموحاته العملية وتجاربه الميدانية في عالم الملاحة.

(٣) حين التّعرض لقصة بدء الخليقة وسيرة الرسل والأنبياء الأولين- عليهم السلام، كان بعض كتب التراث يستعرض قصة سيدنا نوح- عليه السلام، وكيف أنه دعا على ابنه حام بالسواد ليصبح خادماً أو بالأحرى عبداً لإخوته (بسبب

العربي، وجعلته مشدوداً إلى المراكز الحضارية العالمية المشهورة، سواء منها القديمة أو المعاصرة لأيام العرب المزدهرة، على غرار الصين والهند والفرس والإغريق والرومان؛ بينما كان أصحاب «الوجوه المحروقة»- كما في التراث الإغريقي والروماني، أو «السودان والزنج والحبش»- كما في التراث العربي الإسلامي، غير جديرين بأي التفاتة ولو كانت جغرافية[1].

وعلينا في هذا الباب أن ننتبه كيف أن العلامة عبد الرحمن بن خلدون (ت. ١٤٠٦م) بذل مجهودات غير هيّنة في سبيل إقناعنا بأهمية مملكة مالي «السودانية» المسلمة ضمن خريطة ممالك العالم خلال القرن ١٤م، بيد أن عمله وسعيه الحثيث بغرض تجلية تصوّره، اعتراه جهل أو تجاهل فظيع بالأبعاد الجغرافية للمملكة، وشبكة مدنها والمسالك الواصلة فيما بينها، فلم نجد عنده سوى إشارات باهتة تهمّ الموقع الجغرافي للمملكة أو عاصمتها. وينسحب الأمر نفسه على باقي أهم الكتابات العربية حول مملكة مالي المسلمة، مما خلّفه ابن فضل الله العمري (ت. ١٣٤٩م)، أو الرحالة ابن بطوطة الذي زار عاصمة المملكة وأقام بها عدة أشهر من سنة ١٣٥٣م[2].

خطيئة رؤية عورة والده)، ثم كيف انتقل جيل حام وأبنائه لاستعمار إفريقيا «الزنجية» والانتشار فيها. ومعلوم أن قصة تقسيم أبناء نوح (عليه السلام) على المعمور من الأرض، كانت منتشرة على نطاق واسع في التراث اليهودي – المسيحي، وأيضاً في التراث الفارسي. ومن خلال عملية الترجمة؛ انتقلت وانتشرت القصة في التراث العربي الإسلامي. وعلى عادة عبد الرحمن ابن خلدون في إخضاع الروايات التاريخية للتمحيص والقراءة النقدية؛ فقد دحض أساس هذه الرواية، مُعزياً سبب السّواد في الإقليم الأول والثاني من المعمور إلى «إفراط الحر» ليس إلّا؛ وأضاف من اقتفى أثره أن شدة الحرارة هي «المانع من العمارة والحياة في الجنوب (أي جنوب خط الاستواء)». انظر: المسعودي مروج الذهب، ١: ٣٣. ابن حوقل، صورة الأرض، ص ٢٢. مجهول، غرائب الفنون ومُلح العيون، ص ٢٠٧-٢٠٨. ابن خلدون، العبر، ١: ١٤٩-١٥٥. ويراجع: Catherine Coqueriy-Vidrovitch, « Traite et esclavage en Afrique », In Trйsors de l'Islam en Afrique, de Tombouctou a Zanzibar, op. cit., p. 51-52 et 56-57. Jean-Charles Ducиne, L'Europe et les gйographes arabes du Moyen Bge (IXe et XVe siиcle), Paris, CNRS Йditions 2018. pp 54-58.

(١) سادت نظرة دونية تجاه السود في تراث الحضارات منذ أقدم العصور، وورث العرب المسلمون تلك النظرة، بيد أن الإسلام عمل على التخفيف من حدتها دينياً وأدبياً (القرآن الكريم والأحاديث النبوية/ الجاحظ، والسيوطي: فضل السودان على البيضان). ومن الأوصاف المتواترة في كتاباتهم عن السودان قول المسعودي: «وقد ذكر جالينوس في الأسْود عشر خصال اجتمعت فيه، ولم توجد في غيره: تفلفل الشعر، وخفة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحديد الأسنان، ونتن الجلد، وسواد الحدق، وتشقق اليدين والرجلين، وطول الذكر، وكثرة الطرب. (...) قال جالينوس: وإنما غلب على الأسود الطرب لفساد دماغه، فضعف لذلك عقله». انظر: المسعودي مروج الذهب، ج. ١: ٦٦. ونجد آثاراً لتلك الأوصاف مع تبريرها العلمي في: (تأثير الهواء على البشر ما بين الحر والبرد) عند عبد الرحمن بن خلدون (العبر، ١: ١٥٣).

وإذ نستحضر ما سبق قوله في الهامش الثاني؛ علينا ألا نتحرّج من إثارة ومعالجة مثل هذه الظواهر الاجتماعية، أو أن نتخذها كمؤشر على التّعالي أو عنصرية العرب المسلمين تجاه السود كما يفعل البعض؛ فالفكر الغربي الأوروبي، إلى غاية مطلع القرن العشرين، كانت تحكمه مركزية رهيبة، انتهت به إلى ابتداع خلفيات أخلاقية وحضارية موجبة للاستعمار. ثم إنه في عزّ النّهضة الإنسية الأوروبية؛ ذهبت زبدة نخبتهم إلى أبعد الحدود، حينما رتّبت قوانين صارمة في كيفية التعامل مع العبيد السود، فأصدرت سنة ١٦٨٥م ما يُعرف بمدونة السّود Code Noire؛ وللتذكير: فقد استمرت قوانين تلك المدونة نافذة وسائدة إلى مطلع القرن ١٩م. وللاستفاضة في موضوع صورة السود لدى العرب؛ نحيل القارئ على الدراسة القيمة والممتعة لنادر كاظم: تمثيلات الآخر: صورة السود في المتخيل العربي الوسيط، بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر ٢٠٠٤. وأيضاً: Andrй Miquel, Gйographie arabe, op. cit., T. 2 Vol. 147-1, Ch. 4. pp. 140.

(٢) أحمد الشكري، الإسلام والمجتمع السوداني: إمبراطورية مالي ١٢٣٠-١٤٣٠م، الرباط: منشورات مركز الدراسات الصحراوية ٢٠١٥. الطبعة الثانية. ص ٣٢-٣٥، ٢٢٢- ٢٢٧. ويراجع: Karine Delaunay, Voyages a la Cфte de l'Or (1500-1750). Йtude historiographique des relations de voyage sur le littoral ivoirien et ghanйen. AFERA йditions, KARTHALA diffu-

ومثلما حوّمت الفئات المستنيرة (من جغرافيين وفلكيين ومعالمة ورحالة) على الغرض المذكور، سواء عن وعي منها أو عن غير وعي، انساقت وراءهم الطبقة الحاكمة في دول العالم الإسلامي مشرقه ومغربه؛ فوجدناها تسعى سعياً حثيثاً لبلوغ الأندلس شمالاً أو الهند شرقاً، ثم أخذت تجهد نفسها في سبيل بسط نفوذها عليهما منذ نهاية القرن الأول الهجري، بينما لم يجد منهم نطاق إفريقيا المدارية (منطقة الساحل) أو الساحل الشرقي لإفريقيا اهتماماً جاداً[1]. ولربما في هذا التجاهل ما جعل تلك المجالات الإفريقية فضاءات خصبة لاستقطاب الهجرات القسرية لبعض المجموعات القبلية العربية، ناهيك عن المضطهدين مذهبياً واجتماعياً وسياسياً في دول بلاد الإسلام (مجال النفي)[2].

إن فكرة «الوجوه المحروقة» بخلفياتها المعلومة في التراث الإغريقي والروماني، وهي الفكرة التي التقطتها الثقافة العربية الإسلامية، ثم ابتدعت لها تسميات مترادفة كما يقول ابن خلدون (السودان/ الحبش/ الزنج)، قُلت إن هذه الفكرة عانت الشيء الكثير من لعنة نوح، ولم تنفع معها محاولة صاحب (العبر) الرامية لدحضها.

ولئن كنا مستوعبين ومتفهمين للخلفيات التي قضت باستعمال تلك الاصطلاحات خلال العصر القديم والوسيط والحديث؛ فإننا نستغرب استمرار تأثير لعنة نوح على إفريقيا إلى الوقت الحاضر، حيث نجد الكثير من الدارسين المنتمين لأهم المعاهد الدولية المختصة في حقل الدراسات الإفريقية، يعتمدون في كتاباتهم اصطلاح «إفريقيا جنوب الصحراء»=Afrique subsaharienne ؛ والسؤال هنا: ماذا يوجد جنوب الصحراء الإفريقية الكبرى؟ أليس أصحاب الوجوه المحروقة أو السودان والزنج والحبش!! ■

sion 1994. p. 55, 60, 63 et 195-196.

(١) في هذا السياق؛ تبدو لنا حملة أحمد المنصور الذهبي السعدي على مملكة سنغاي العام ١٥٩١م حدثاً فريداً ومتفرّداً في تاريخ العلاقات ما بين ضفتي الصحراء على امتداد أكثر من ١٠٠٠ سنة. وفضلاً عن الاعتبارات السياسية الناجمة عن الضغوطات العثمانية شرقاً والإسبانية من جهة الشمال، والتي عانى منها المغرب السعدي كثيراً؛ نود لفت الانتباه إلى أنه بعد وفاة السلطان أسكيا داود سنة ١٥٨٢م؛ أخذ الضعف يدب في جسم إمبراطورية سنغاي جراء الهجومات المتوالية على أطرافها من جانب البنبر والموشي من الجنوب والتوارق من الشمال، ثم جاءت الحملة السعدية عام ١٥٩١م لتهدم ما تبقى من أركان الدولة السنغية. وللاستزادة حول الموضوع؛ يراجع: مبارك آيت عدي، حملة أحمد المنصور الذهبي إلى بلاد السودان ٩٩٩هـ/١٥٩١م، رسالة جامعية لنيل الدكتوراه الوطنية، تخصص تاريخ، جامعة محمد الخامس-أكدال، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، السنة الجامعية ٢٠٠٢-٢٠٠٣ (مرقونة).

Michel Abitbol, Tombouctou et les Arma, Paris, Maisonneuve et Larose 1979. Joseph Cuoq, Histoire de l'islamisation de l'Afrique de l'ouest des origines a la fin du 16ume siиcle, Paris, Geuthner, 1984. pp. 187-194.

(٢) إذا كانت قصة فتح الأندلس مشهورة ومعروفة إلى حدٍّ ما؛ فإن فتوحات المسلمين بأرض السند والهند قلما تداولها غير المختصين، ولمن رام متابعة أطوار القصة نحيله على دراسة محمد نصر عبد الرحمن: الوجود العربي في الهند في العصور الوسطى، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب ٢٠١٤. تراجع المقدمة والفصلين الأول والثاني. وبالنسبة لموضوع الهجرات القبلية القسرية وهروب بعض الأسر العربية للساحل الشرقي لإفريقيا، أو منطقة الساحل الواقعة جنوب الصحراء خوفاً من الاضطهاد بمختلف أشكاله؛ فإن الإفادات المصدرية أكثر من أن تحصى، وتلافياً لإثقال مساحة الهامش هنا فإننا نمنّي النفس بمعالجة الموضوع في قابل الأيام.